اليهودى

للقصصى الروسى إيفان ترجنيف

« قص علينا قصة أيها السكيرتل »

وابتسم السكيرتل نيقولا إليتش ونفخ من فمه أسطوانة حلزونية من الدخان انبعثت من شاربيه ، ومسح بيده على شعره الأشهب ، ونظر إلينا مفكراً ، وكنا جميعاً نحب نيقولا إليتش أعظم الحب ونجله أكبر التجلة ، لما اتصف به من طيبة القلب ، ورجاحة العقل ، ولما نسمعه من حديثه علينا نحن الفتية ؛ وكان رجلا طويل القامة عريض المنكبين ممتلئ البدن قويه ، وكان يجتذبنا إلى شخصه وجهه الأسمر ، أحد تلك الوجوه الروسية العظيمة ، ونظرته الصريحة الذكية ، وابتسامته الرقيقة ، وما في صوته من فحولة وعذوبة ، كان كل شيء حوله في الجملة يفتتنا ويستهوينا

وبدأ نيقولا كلامه قائلا « لا بأس . فاسمعوا إذن »

* * *

حدثت قصتى سنة ١٩١٣ أمام دانزج وكنت أعمل يومئذ في فرقة ا . ألا أنها شى

وجاهد الشاعر ليفتح عينيه فقد كانتا مغمضتين ، فما استطاع أن يفتحهما بعض الشيء رأى أمام فراشه شبح امرأة ، ظن أنه طيف المرأة التى كرس لها حياته وعاش على رنين خلاخلها وحفيف ثوبها ، قد جاءت لترى وجهه في آخر لحظة من حياته

وقالت له أنا أوجينا

وحاول الشاعر النهوض من فراشه ولكنه لم يستطع ، فقالت له : إن الملك قد منحك حقك . إنك أنت الذى انتصرت في هذه المعركة ، ولكنهم لم يدركوا هذا النصر بعظمته ! أما أنا التى فهمتك فقد جئتك لأضع على جبينك تاج النصر . وأخذت طاقة من الأزهار كانت تضعها في صدرها ووضعتها على جبينه

وتحسسها الشاعر ، ثم تمتم في صوت خافت : هذا هو النصر الذى كنت أسعى إليه ، ثم سقط على فراشه ميتا وقد ارتسمت على شفته بسمة النصر والرضا

عبد الموجود عبد الحافظ

ممتع أقصد الحرب ! والزحف كذلك طيب في ذاته ، ولكنه يصبح بطيئا أعظم البطء ، حين يحاصر جيش موقعا من المواقع ، هنالك يجلس المرء يومه المبارك كله في ضرب من الخنادق تحت خيمة ، يفترش الطين أو القش ، ويظل يلعب الورق من الصباح حتى الليل ، وربما خرج المرء من قرطاسيقه لينظر إلى القنابل وإلى الرصاصات الحامية كأنها النار ، وهي تطير

وأتاح لنا الفرنسيون ما نستمتع به من قصص أنبائهم ، ولكنهم مالبثوا أن تراخوا . وكذلك ركبنا السأم من هجماتنا على القرية المجاورة بسبب اللؤم . وفي الحق لقد بلغ بنا الضيق كل مبلغ حتى لقد أوشكنا أن نولول من الملل !

ولم أكن قد جاوزت التاسعة عشرة يومذاك ، وكنت شابا صحيح البدن ، عصبا كالرمقة ، لا أفكر في شيء إلا السخرية من الفرنسيين ما وسعتني السخرية ... وثمة أشياء أخرى ... إنكم تفطنون إلى ما أريد ... وها كم ما حدث ..

لم أجد ما أعمله ذات يوم عمدت إلى المقامرة ، وواتاني الحظ فجأة بعد أن خسرت خسارة فادحة فربحت قبيل انبلاج الصبح (فقد اعتدنا أن نلعب في الليـل) قدرا عظيما ، وخرجت وقد بلغ مني الجهد وتملكني النعاس ، إلى الهواء الطلق فجلست فوق أكمة : وكان صباحا جميلا هادئا وقد غرقت خطوط حصوننا الطويلة في ضباب كثيف : ونظرت حتى نال مني التعب ثم أخذتني سنة وأنا جالس

وأيقظتني سعلة حذرة ، وفتحت عيني فرأيت يهوديا أمامي ، وكان رجلا في الأربعين يرتدي مدرعة رمادية طويلة الذيل ، وينتعل خفين ويضع على رأسه قبعة عالية سوداء . وكان ذلك اليهودي واسمه جريشل كثيرا ما يروح ويجيء حول معسكرنا ، يعرض خدماته كعامل عند أحد التجار ، ويحضر لنا الخمر والبن وغيرهما . وكان هزيلا أحمر الشعر ضئيل الجرم ينقط آثار الجدري وجهه

وكانت تطرف عيناه الصغيرتان في غير انقطاع ، وكانتا حمراوين كذلك ؛ وكان أقنى الأنف طويله . وكان يسعل دائما

وسألته آخر الأمر ماذا تريد ؟

— أود — إني فقط ، لقد جئت فقط ياسيدي لأعرف ماإذا كنت ذا نفع لسيادتك في أية ناحية

— ليس بي حاجة إليك ، وتستطيع أن تذهب لسبيلك

— أنا عند أمر سيادتك ، كما تشاء ، حسبت ياسيدي أنه قد يكون هنالك ما ...

— إنك تضايقني ، انطلق ، إلى

أقول لك

— حقا ، سيدي ، حقا . ولكن سيادتك ينبغي أن تأذن لي أن أهنئك على فوزك

— لماذا ؟ وكيف عرفت ذلك ؟

أوه — إني أعرف .. إني أعرف ذلك حقا .. قدر عظيم من المال .. أوه .. ما أعظمه ! ويبدأ جريشل أصابعه وهز رأسه

وقلت متبرما : وما فائدة الكلام .. ماذا يجدى المال ويحك هنا ؟

— أوه — لا تقل ذلك .. سيدى .. نعم : نعم .. لا تقل ذلك .. المال شئ عظيم الأهمية دائما ذو نفع .. إنك يا سيدى تحصل على أى شئ بالمال .. أى شئ ! أى شئ ! قل ما تريد سيادتك فحسب ، قل لى وأنا أحضر لك ، يا سيدى ، أحضر لك أى شئ ! أى شئ !

— لا تكذب أيها اليهودى

وهز اليهودى خصلات فوديه وهو يقول ، نعم ، نعم ، سيادتك لا تصدقنى ، نعم ، نعم

وأغمض اليهودى عينيه وحرك رأسه ذات اليمين وذات الشمال ثم عاد يقول أوه ، إنى أعرف ، أعرف ماذا يريد صاحب السيادة الضابط ، أعرف ، حقا أعرف ذلك

وتكلف اليهودى ابتسامة من يعرف حق المعرفة

— حقا أعرف

وتلفت اليهودى يمنة ويسرة في تخوف ، ثم اتجه نحوى منحنيا وهو يقول

فاتنة ، أى فتنة ! ؟ سيادتك ، مخلوقة حلوة ، أية مخلوقة !

وأغمض اليهودى عينيه ثانية وأطبق شفتيه

سيدى ، لك أن تقول الكلمة فحسب ، سوف ترى بنفسك ، ومهما يكن ما أقوله الآن فاسمعه ، ولكنك لا تريد أن تصدق ، مرنى كي أريك ، هذا هو الصواب ، هذا هو الصواب

ولم أتكلم ؛ ولبثت أحملق في اليهودى فقال :

— حسن ، لقد اتفقنا إذن ، حسن ، هذا جميل ، وسأريك إذن

— وعندئذ ضحك جريشل وربت على كتفى ، ولكنه انكفأ متراجعا في الحال كما لو أنه لسع

— ولكن ماذا ترى ياسيدى في شئ ولو قليلا مقدما ؟

— إنك تخادعنى وسوف أريك نوعا من القربان

وتكلم اليهودى في حماسة غير عادية قائلا وهو يحرك يديه يمنة ويسرة ... ما هذا الذى تقول ؟ أى كلام هذا ؟ كيف تقول ذلك ! في — إذا حدث ذلك

سيادتك ... لم أجد خمسمائة ... أربعمائة وخمسين جلدة! ثم أضاف مسرعاً إلى ذلك.. إنك الذي يصدر الأوامر يا سيدي

وهنا رفع أحد رفاقي طرف خيمته وناداني باسمي ، فنهضت معجلا وألقيت إلى اليهودي قطعة نقد من الذهب

وتمتم قائلا من خلفي ... هذا المساء ... هذا المساء

ويجب أن أصارحكم أيها الأصدقاء أني صرت أترقب المساء في شيء من نفاد الصبر

وكان الفرنسيون في ذلك اليوم قد هجموا هجمة للخروج من حصارهم ، وزحفت فرقتنا ترد هجومهم

وأقبل المساء ، وتحلقنا حول النار ، وجعل الجند يطهون طعامهم ، وأخذ رفاقي يتحدثون واضطجعت على عباءتي واحتسيت الشاي وأصغيت إلى أقاصيص الرفاق ، ثم إنهم اقترحوا لعبة من لعب الورق ولكني لم أشاركهم لعبهم ، لقد كان يساورني القلق ، وتفرق الضباط شيئا فشيئا متجهين إلى خيامهم ؛ وأخذت تنطفئ النيران ؛ وتفرق الجند كذلك أو ناموا حيث كانوا ؛ وكان كل شيء ساكنا ولم أنهض من مكاني ؛ وكان الجندي تابعي يجلس القرفصاء على عقبيه إلى جوار النار وقد أخذ يهوم ؛ فأرسلته بعيدا عني وشمل المعسكر كله سكون تام ؛

وبقيت في مكاني فعل من ينتظر شيئا ؛ وأخذت تطرف الكواكب ، وتقدم الليل ، ولبثت طويلا أنظر إلى ألسنة النار وهي تموت ، ثم خمدت أخرى النيران ؛ وقلت في نفسي حقا لقد خدعني اليهودي اللعين ، وكنت على أهبة النهوض من مكاني حين سمعت من يهمس همسا مرتعشا إلى جوار أذني قائلا سيدي ، فتلفت فإذا هو جريشل ؛ وكان شاحب الوجه جدا ، ثم تلعثم وتمتم ببعض كلمات في همس قال :

— دعنا نذهب إلى خيمتك ياسيدي

ونهضت فتبعته ، وقد انكمش اليهودي وتداخل بعضه في بعض ، وخطا اليهودي في حذر فوق العشب القصير المندى ؛ ورأيت عن كثب شبحا ملففا لا يتحرك ؛ وأشار إليها اليهودي فمشت نحوه ، فهمس في أذنها ثم اتجه نحوي وأومأ برأسه عدة مرات ؛ ثم دخل ثلاثتنا الخيمة

ومن المضحك أن أقول لكم إني كنت ساعتئذ لا أكاد أجد نفسي

وهمس اليهودي في جهد قائلا : أترى ياسيدي ... أنظر ... إنها خائفة الآن بعض الخوف ... إنها خائفة ، ولكني أخبرتها أن صاحب السيادة الضابط رجل طيب ... رجل عظيم ... لا تخافي ... لا تخافي ... لا تخافي ... .

ولم يتحرك الشبح الملفف ؛ وأحسست أني كنت أنا نفسي في حال من الاضطراب المخيف ولم أدر ماذا أقول ؛ وكان جريشل لا يفتأ يتململ ويأتي بإيماءات واهتزازات غريبة وقلت له : على أي حال اخرج أنت !

وأطاع جريشل على غير رغبة منه كما بدا لي

ومضيت إلى الشبح الملفف ، ورفعت في رفق قلنسوتها الطويلة ؛ وكان في (دائرج) حريق فاستطعت على ضوئه الخافت المحزن أن أتبين وجه اليهودية الشاحب ؛ فأخذ جمالها بمجامع قلبي ؛ وأذهلني عن نفسي ورفعت النظر إليها محدقاً في صمت ، ولم ترفع اليهودية عينيها ، ثم إن حفيفاً ضئيلا جعلني أدور بعيني ، فقد كان جريشل يطل برأسه من تحت حافة الخيمة ؛ فلوحت بيدي نحوه في غضب فاختفى

وأخيرا قلت لها : ما اسمك ؟

— سارة — ذلك حسب ما فاهت به ، ونبينت لحظة في الظلام لمح البياض في عينيها الدعجاوين المستطيلتين ، كما تبينت ما كاد يضوي من أسنانها الصغيرة ...

وجذبت مخدتين من الجلد وألقيت بهما على الأرض وسألتها أن تجلس على إحداهما فأزاحت متحفتها عن كتفيها وجلست ؛ وكانت ترتدي سترة فوقانية قصيرة مفتوحة من الصدر ذات أزرار مستديرة فضية منقوشة ، وردتين كاملين ؛ وكان شعرها الأسود الكثيف ملفوفاً لفتين حول رأسها الصغير : وجلست إلى جوارها وأخذت يدها الرشيقة بيدي ؛ فمانعت بعض الممانعة ، وبدت كأنها تخاف أن تنظر إلي ، وكان في تنفسها لهفة ، ولقد أعجبت بمنظر وجهها الجاني الشرقي السمات وضغطت في رفق بيدي على أصابعها المرتعشة الباردة فقلت لها :

أتتكلمين الروسية ؟

فقالت : نعم بعض الشيء

فقلت : وهل تحبين الروس ؟

فأجابت : نعم إني أحبهم

فقلت : إذا فأنت تحبينني كذلك

فقالت : نعم إني أحبك

وحاولت أن أدور بذراعي حول خصرها ولكنها نفرت مني مسرعة وهي تقول :

لا . لا . أرجوك ياسيدي ، أرجوك

فقلت لها : أوه ... لا بأس ... أنظري إلي على أية صورة

وتركت عينيها الدعجاوين النافذتين تستقران على وجهي ولكنها ما لبثت أن استردتهما باسمة تصبغ وجهها الحمرة

ولثمت يدها في حرارة ، فصوبت إلي نظرات من تحت أجفانها وضحكت ضحكة خفيفة

بسألتها : ماذا يضحكك ؟

فأخفت وجهها في ردنها وضحكت أكثر من ذي قبل

وظهر جريشل في مدخل الخيمة وهز رأسه محذرا ؛ فأمسكت عن الضحك

وهمست له بين أسناني قائلا : غرب عنى الآن ودعني أستقر !

ولم يبرح جريشل الخيمة ؛ فأخذت قبضة من الذهب من جيبي ودسستها في يده ودفعته إلى الخارج

فقالت اليهودية : يا صاحب السيادة . . وأنا كذلك …

ونثرت عددا من القطع في حجرها فانقضت عليها كالقطة

فقلت لها : حسن … يجب الآن أن أظفر بقبلة

فقالت : لا … أرجوك … أرجوك —

وصمتت قليلا في صوت مذعور مستعطف

فسألتها : مم تخافين ؟

فأجابت : إنى خائفة

فقلت لها : كلام فارغ

فقالت : كلا أرجوك …

ونظرت إلى في استحياء وخوف ، ومالت برأسها قليلا إلى جانبها وشبكت يديها فكففت عنها

ثم قالت بعد صمت قليل : إذا كنت تريد … فهنا ؛ ورفعت يدها إلى شفتى فلثمتها في شغف غير كثير وعادت سارة تضحك

وأحسست بدمى يغلى ؛ وضقت بنفسى ، ولم أدر ماذا أصنع ؛ لقد فكرت أخيرا أنى مائق أحمق ، واتجهت نحوها ثانية وقلت :

— سارة ، اسمعى إنى أحبك

فأجابت : أعرف ذلك

فقلت : تعرفين ؟ ألست غضبة ؟ وهل تحبينني كذلك ؟

وهزت سارة رأسها

فقلت : لا — أجيبينى كما ينبغى

فقالت : حسن أرنى نفسك

وانحنيت نحوها ، فوضعت سارة يديها على كتفى ، وراحت تنعم النظر في وجهى وقطبت وابتسمت . . ولم أتمالك نفسى فقبلت خدها قبلة سريعة ، فانتفضت قائمة ، وفي وثبة واحدة كانت لدى مدخل الخيمة

فدعوتها تعالى ، أى فتاة خجولة أنت !

فلم تنطق سارا بكلمة ولم تتحرك

وعدت أدعوها : تعالى هنا إلى

فقالت : لا ياسيدى ، إلى اللقاء مرة أخرى

وأطل جريشل مرة أخرى برأسه الجعد وهمس في أذنيها كلمتين ، ثم بعدها وزحفت خارجة كالثعبان . .

وعدوت في أثرها خارج الخيمة ، ولكنى لم أستطع أن أراها أو أرى جريشل ، ولم أجد إلى النوم سبيلا ليلتى كلها

وفى الصباح الثانى كنا جلوسا فى خيمة قائد فرقتنا ، وكنت ألعب الورق ولكن فى غير إقبال ودخل تابعى الجندى وقال « إن شخصا يسأل عن سيادتك »

فقلت : من هو ؟

فأجبت قائلا : يهودى

أيمكن أن يكون جريشل ؟ وانتظرت حتى انتهى الدور وذهبت إلى خارج الخيمة فوجدته إياه

وسألنى وهو يبتسم ابتسامة استعطاف قائلا هل أنت راض عنى ياسيدى ؟

آه أنت يا .. وتلفت محدثنا باحثا بعينيه قائلا :

— ليس هنا سيدات فيما أعتقد، لا علينا من هذا على أى حال ، آه ، باركك الله هكذا أنت تعبث بى ، أليس كذلك ؟

وقال جريشل فى لهجة تأنيب ولكن ابتسامته لم تفارقه : إى ، إى ، أنت رجل بطال جدا ! إن الفتاة صغيرة خجولة ، لقد أخفتها حقا ، حقا لقد فعلت

فقلت : نوع غريب من الخجل حقا ... لماذا إذن أخذت نقودا ؟

فقال اليهودى : لماذا ؟ وماذا فى ذلك ؟ إذا وجد المرء مالا فلماذا لا يأخذه ياسيدى ؟

فقلت : دعها تحضر ثانية ياجريشل ، وسوف أكون كما تحب ، كل ما أطلب هو ألا تريني وجهك الغبى داخل الخيمة ، دعنا فى أمن ، أسامع أنت ؟

والتمعت عينا جريشل ثم سألنى :

— ماقولك فيها ، أتحبها ؟

قلت : نعم

فقال : إنها جميلة ، مخلوقة جميلة جدا ! ليس كمثلها أينما اتجهت ، وهل لديك شىء لى الآن ؟

فأجبته : نعم ، هاك ، ولكن تمهل ، الصدق خير من الذهب ، أحضرها ثم اذهب إلى جهنم وسأرافقها بنفسى حتى بيتها

فأجاب اليهودى مسرعا : لا ياسيدى ، لا ، هذا مستحيل ياسيدى ، نعم ، نعم هذا مستحيل ، سأمشى حول الخيمة إذا شئت ياسيدى ، وسوف ، وسوف ، أبعد ياسيدى إذا شئت ، قليلا ، ستجدنى مستعدا أبدا لخدمتك ، سيدى مابتعد ، حقا سوف أفعل

فقلت : حسن ، تذكر أن تفعل ذلك ، أحضرها .. أسامع أنت ؟

فقال : إه ... ولكنها جميلة، ياسيدى ، جميلة ، إه ؟

وانحنى جريشل ونظر إلى بعينيه الطارفتين

فقلت : إنها حسنة الهيئة

فقال : حسن ، إذن فأعطنى قطعة أخرى من الذهب

وألقيت إليه بقطعة أخرى ثم افترقنا

وأخيرا انقضى النهار ، وهبط الليل

وتقدم ، ولقد بقيت مدة طويلة وحدى فى خيمتى وكان الظلام شديدا خارج الخيمة ، وسمعت فى المدينة دقة الساعة وكانت الثانية .. وبدأت ألعن اليهودى ساخطا ، وإذذاك دخلت سارة الخيمة وحدها ، فوثبت من مكانى ، وأخذتها بين ذراعى ، ووضعت شفتى على وجهها ، وكان باردا كالثلج ، ولم أتبين ملامحها إلا فى جهد ، فأجلستها وجثوت أمامها ، وتناولت يديها ولمست خصرها ، ولم تتكلم ولم تتحرك ، ثم إنها فجأة راحت تجهش إجهاشات عالية وهى تنتفض ، وحاولت عبثا أن أهدئ روعها ، أو أغريها ، ومضت تبكى بدمع هتون ، فهدهدتها ، ومسحت دموعها ، فلم تقاوم ، ولم تجب عن أسئلتى ، ومضت تبكى ، تبكى كمسقط الماء ، وشعرت بالألم يحز قلبى ، فنهضت وخرجت من الخيمة

وبدا جريشل كأنما انبعث أمامى من الأرض فقلت له : « هاك المال الذى وعدتك به ياجريشل ، خذ سارة من هنا »

واندفع اليهودى لتوه نحوها فكفت عن البكاء ، وتعلقت به

فقلت : وداعا ياسارة ، يرعاك الله ، وداعا ، سوف يرى كلانا صاحبه مرة ثانية

ولزم جريشل الصمت ، وأحنى رأسه فى خضوع ، وانحنت سارة وأخذت يدى وضغطت بها على شفتيها ، ثم انصرفت عنهما

وبقيت بارفاق خمسة أيام أو ستة دائم التفكير فى صاحبتى اليهودية ، ولم يظهر جريشل ولم يره أحد فى المعسكر ، وكنت أنام الليالى نوما متقطعا ، وكانت تلازم خيالى عينان سوداوان قد تندتا ، وأهداب طويلة ، ولم تنس شفتاى خدها وقد كان ناعما ناضرا كأنه الخوخة الحريرية الملمس .

وأرسلت بعد ذلك فى جماعة لسلب المؤونة من إحدى القرى على مسافة منا ، وبقيت فى الشارع على ظهر جوادى بينما كان الجنود يسعون فى البيوت نهبا ، وعلى حين غفلة أمسكت يد بإحدى قدمى فنظرت فإذا سارة ! وكانت شاحبة مضطربة تقول : سيدى ، أغثنا ، خلصنا ، إن جنودك يعتدون علينا ويهينوننا .. ثم عرفتنى فالتهبت وجنتها الحمرة

وسألتها : أتقيمين هنا ؟

فأجابت : نعم

فقلت : أين ؟

فأشارت سارة إلى بيت صغير قديم ، وهمزت فرسى وأسرعت به إلى ردهة البيت فوجدت يهودية قبيحة محطمة تحاول أن تنتزع من شاويشى الطويل سيليايفكه ثلاث دجاجات وبطة ، وكان يرفع أسلابه فوق رأسه ضاحكا ، وكانت تصيح الدجاجات

والبطة ، وكان جنديان آخران يحملان حصانيهما بالحطب والدقيق ؛ وسمعت داخل البيت صيحات وأيمانا تقسم بلغة روسيا الجنوبية ، فناديت جنودى وأمرتهم أن يدعوا اليهود فلا يأخذوا منهم شيئا فأطاعوا وتبعنى الشاويش فوق فرسه إلى الشارع

وقلت للفتاة : الآن هل سرك منى ما فعلت ؟

فنظرت إلى فى ثغرها ابتسامة فقلت :

— ماذا كان من أنبائكم طوال هذه المدة ؟

فخفضت عينيها ثم قالت: سوف أحضر إليك غدا

فسألتها : فى المساء ؟

فقالت : لا يا سيدى فى الصباح

فقلت : لا تنسى أن تفعلى ، لا تخدعينى

فأجابت : كلا ، كلا لن أخدعك

ونظرت إليها فى شغف ، وقد بدت لى فى ضوء النهار أروع منها فيما مضى ، وأذكر أن ما راعنى بوجه خاص ساعتئذ ما كان فى وجهها من مسحة خفيفة من لون العنبر ، وما كان فى شعرها الأسود من زرقة براقة ، ثم انثنيت عن ظهر جوادى وشددت على يدها الصغيرة فى حرارة

* * *

واستيقظت من نومى مبكرا فى اليوم التالى ، وارتديت ملابسى وخرجت من خيمتى ؛ وكان صباحا رائعا ؛ وكانت الشمس قد بزغت لتوها ، وكان كل عود من الحشيش يبرق بما عليه من ندى ومن شعاع أحمر ، وصعدت إلى أحد المتاريس العالية ، وجلست على حافة كود مدفع ، وكان أسفل منى مدفع ضخم يصوب فوهته السوداء نحو المدينة المكشوفة ونظرت حولى فى فتور ، فوقع بصرى فجأة على شبح منحن فى سترة رمادية على مائة خطوة منى ؛ وبينت فيه جرشل . ولقد وقف لحظة سوية لا يتحرك فى مكان واحد ، ثم أخذ فجأة يعدو إلى مسافة قصيرة على أحد جانبيه . ثم تلفت حوله فى سرعة وشفقة . ويصاح صيحة ثم ألقى فى حذر ، ثم مد عنقه وأخذ يتلفت حوله ثانية ويمد سمعه ؛ وكنت أرى حركاته هذه فى وضوح تام ؛ وأدخل يده فى صدره وأخرج قطعة من الورق وقلم رصاص ، وأخذ يكتب أو يرسم شيئا . وكان جرشل يتوقف ثم يتوثب كالأرنب ، يمعن النظر فى كل شىء حوله متيقظا . وبدا كأنه يخط رسما للمعسكر ؛ واقد أخفى ورقته أكثر من مرة . وأغمض عينيه نصف إغماضة ، وتنشق من الهواء نشقة ثم عاد إلى عمله . وأخيرا جلس اليهودى القرفصاء على الحشيش ، وخلع أحد خفيه وأخفى فيه ورقته

ولم يكد يهم اليهودى بالوقوف حتى ظهر

فجأة من خلف كثيب على عشر خطوات وراءه ، وجه ذو لحية ، وهو وجه الشاويش سيليافكا ، وانبعث جسمه الطويل القبيح شيئاً فشيئاً من الأرض ؛ ووقف اليهودي وظهره إليه ، فأسرع سيليافكا نحوه ووضع كفه الثقيلة على عاتقه ! وبدا جريشل كأنما ينكمش بعضه في بعض ؛ واهتز كورقة الشجرة وصرخ صرخة ضعيفة مثل صرخة الأرنب وخاطبه سيليافكا متهدداً إياه وأخذ بتلابيبه ؛ ولم أسمع ما دار بينهما ، ولكن مما رأيته في وجه جريشل من أمارات اليأس والخوف ، وما شهدته من حركاته الضارعة استطعت أن أحدس ماذا فعل

ولقد ارتمى اليهودي مرتين على قدمي الشاويش ؛ وأدخل يده في جيبه وأخرج منديلا خلقاً وحل عقدته وأخرج منه قطعاً ذهبية من النقد ، وأخذ سيليافكا ما قدم إليه في كثير من الشمم ، ولكنه لم يكف عن سحب اليهودي من تلابيبه ؛ وجذب اليهودي نفسه فجأة وانطلق يعدو ، وتبعه الشاويش مسرعاً ، وكان اليهودي يعدو عدواً شديداً ؛ وكانت ساقاه في جوربيه الزرقاوين ترفان في سرعة عظيمة ، ولكن الشاويش ما لبث أن أدرك اليهودي وقد تكور على الأرض فأنهضه ، وحمله بين ذراعيه إلى المعسكر ؛ ونهضت من مكاني وذهبت لمقابلته

وصاح سيليافكا : « آه ، ياسيدي هذا جاسوس ، قد جئتك بجاسوس » ، وكان العرق ينصب من جبهة الشاويش ؛ وراح سيليافكا يزجر اليهودي قائلا « كف عن التملص أيها اليهودي الشيطان ، أتسمع قولي ؟ أيها الشقي ، كف وإلا خنقتك »

وكان جريشل التعس يضرب بمرفقه صدر سيليافكا في ضعف ، وكان يركل الهواء برجليه في ضعف كذلك ، وكانت تطرف عيناه في تشنج

وسألت سيليافكا ماذا حدث فقال وكان لا يزال يحمل جريشل بين ذراعيه : « يدا تفضلت فخلعت الخف من قدمه اليمنى فإني لا أستطيع أن أمسكها »

وخلعت خفه فأخرجت منه قطعة من الورق مطوية في عناية ، وبسطتها فوجدت فيها رسما دقيقاً لمعسكرنا ؛ وكان على هامشه بعض الكلمات في خط دقيق باللغة العبرية

وأنزل سيليافكا اليهودي وأوقفه على قدميه ، وفتح اليهودي عينيه ، فما أن رآني حتى خر على ركبتيه أمامي ؛ وأريته الورقة دون أن أتكلم وسألته ما هذا ؟ »

فأجاب لا شيء ياسيدي ، لا شيء إني كنت فقط . . .

فقلت له : أأنت جاسوس ؟

ولم يع ما أقول وتمتم ببعض كلمات متقطعة ثم سقط على ركبتي في رعب وهو جاث أمامي

وسألته ثانية : أأنت جاسوس ؟

فصاح صيحة خافتة وهو يهز رأسه « أنا ؟ كيف أكون كذلك ؟ لم أفعل ذلك قط ولست جاسوسا أبدا ، هذا غير ممكن ، غير ممكن ألبتة ، إنى مستعد ، سوف ، هذه الدقيقة ، إن لدى مالا أعطيه ، سوف أدفع مالا .. »

وهمس بالجملة الأخيرة ثم أغمض عينيه وانزلقت قبعته العالية إلى الخلف حتى عنقه ، وتندى شعره المجعد بعرق بارد ، وتدلت منه ذقنه وكانت شفتاه زرقاوين ، تختلجان في حركة تشنجية ، وكان حاجباه مقطبين في صورة أليمة وبدا وجهه مسنونا

وجاء الجند فتحلقوا حولنا ؛ وكنت قد اعتزمت أول الأمر أن أخوف جريشل ثم آمر سيليافكا أن يكتم الأمر كله ؛ ولكن النبأ ذاع الآن ، ولابد أن يبلغ مسامع القائمين على شئون الحرب . فقلت للشاويش خذه إلى القائد

وصرخ جريشل وفي صوته نبرة اليأس « سيدي ... سيدي ... لم آت ذنبا ... مره يطلقني مره يطلقني ... »

وقال له سيليافكا « هيا ... إن القائد سوف يقضي في أمرك »

وعاد اليهودي يصرخ ورائي « سيدي مره ... كن رحيما بي »

وآلمتني صرخته ، فأسرعت الخطا ، وكان قائدنا ألماني الأصل ، وكان رجلا أمينا طيب القلب ولكنه كان شديد الحرص على اتباع قوانين الحرب ؛ ولقد توجهت إلى البيت الصغير الذي كان قد أعد له على عجل وشرحت له في كلمات قصيرة سبب زيارتي إياه ! وما كنت لا أجهل صرامة القوانين الحربية ، فقد تجنبت في حديثي كلمة (الجاسوس) وحاولت أن أصور له المسألة على أنها شيء تافه لا تستحق الالتفات ، ولكن القائد لسوء حظ جريشل قد وضع واجبه فوق الرحمة ... وقال لي في عبارة روسية غير سليمة « إنك أيها الشاب غير مجرب ... أجل إنك في أمور الحرب لست ذا تجربة بعد ؛ وإن المسألة التي تحدثت عنها خطيرة ، عظيمة الخطر ... أين ذلك الرجل الذي ضبط ؟ أين هو ؟ »

وخرجت فطلبت إلى الجند أن يحضروا اليهودي ؛ وجاءوا به فأدخلوه وكان ذلك المخلوق البائس لا يكاد يستطيع الوقوف على رجليه

فقال : القائد متجها نحوي « والآن أين الرسم الذي وجد معه ؟ »

وأعطيته الورقة فنظر فيها وقطب حاجبيه وقال في تؤدة « هذا مدهش جدا ، من قبض عليه ؟ »

فانبعث سيلياف كا يقول في قوة « أنا يا صاحب السعادة »

فقال القائد : آه هذا حسن ، حسن ، والآن أيها الرجل ماذا تقول دفاعا عن نفسك ؟

وتمتم جريشل قائلا « أنا ، سعادتك ، حقا ، سعادتك ، إنى لست مذنبا ، سل الضابط سل سيادته ، أنا بائع ، يا صاحب السعادة ، بائع أمين »

وقال القائد في صوت خافت وهو يهز رأسه عابسا « يجب أن يستجوب ، تعال ، كيف تفسر هذا يا صاحبي ؟ »

فقال اليهودى : لست مذنبا ، يا صاحب السعادة ، لست مذنبا

فقال القائد : لقد ضبطت متلبسا

فأجاب : صدقنى ، يا سيدى أنا ، أنا لم أجرم

فسأله : هل رسمت هذا ؟ أنت جاسوس للعدو ؟

— فصرخ جريشل فجأة « لم أكن أنا سعادتك ... لست أنا ... »

فنظر القائد إلى سيلياف كا فقال هذا « عجبا إنه يهذى يا صاحب السعادة ، إن الضابط ، هو الذى أخرج الورقة من أحد خفيه »

ونظر القائد إلى فوجدنى مضطرا إلى أن أومئ برأسى موافقا

وقال القائد : أنت جاسوس للعدو أيها الرجل

وأجاب جريشل : لست أنا ... يا صاحب السعادة ، لست أنا

فقال القائد : اعترف ؛ هل أمددت العدو بمعلومات كهذه من قبل ؟

فقال اليهودى : كيف أستطيع ذلك ؟

فقال القائد : إنك لن تخدعنى أيها الرجل ... قل أنت جاسوس ؟

وأغمض اليهودى عينيه وهز رأسه ورفع طرف سترته

ونطق القائد بعد صمت قصير قائلا في حزم « أشنقوه وفق القانون ... أين فيودور شليكمان ؟ »

وانطلق بعض الجند يحضروا شليكمان مساعد القائد ؛ وأخذ وجه جريشل يبدو مخضارا وفغر فاه ، وجحظت عيناه كأنما أرادتا أن تخرجا من محجريهما ؛ ودخل القائد المساعد فأخبره القائد بما يفعل ؛ ثم دخل الحجرة بعض الضباط يتساءلون بالأحداق

وخاطبت القائد بالألمانية على قدر ما أستطيع « أرجو منك الرحمة به يا صاحب السعادة ... أطلقه »

فأجابنى بالروسية . أنت أيها الشاب غير مجرب كما قلت لك ، فالزم الصمت ولا تضايقنى أكثر مما فعلت »

وألقى جريشل بنفسه صارخا فوق قدمى القائد

« عفوك يا القائد ... رحمة بى ... لن أعود إليها أبدا ... لا لن أعود ... إن لى زوجة ... يا صاحب السعادة ... وبنتا ... كن رحيما بى »

وقال القائد : عبثا تحاول

فقال اليهودى: حقا.. ياصاحب السعادة.. أنا مذنب ... إنها المرة الأولى ... ياصاحب السعادة ... المرة الأولى ... صدقنى

وعاد القائد يسأله : ألم ترسل معلومات قبل هذه؟

فأجاب : هذه أول مرة ، ياصاحب السعادة زوجتى ، أطفالى ، رحمة بى

فقال القائد : ولكنك جاسوس

وأحس القائد كأن شيئا يخزه ، ولكنه لم يجد بدا ، فقال متمالكا نفسه فى هيئة من يضطر إلى أن يأتى من العنف ما يهز قلبه ، ومن يضحى مشاعره الطيبة فى سبيل الواجب الذى لا معدى عنه : « اشنقوا اليهودى حيثما يقضى به القانون ، اشنقوه ، وأنت يا فيدور أرجو منك أن تضع تقريرا عن الحادث »

وغشى اليهودى فجأة تغير مخيف ، فبدلا من ذلك الرعب المتهيب الذى هو من خصائص طبيعته ، حل فى وجهه ذلك الألم الرهيب الذى يسبق الموت ؛ وتنزى كما يتنزى الوحش السجين ؛ وظل فمه مفتوحا وسمعت حشرجة فى حلقه ؛ وصار يثب ويهبط ، محركا مرفقيه فى تشنج ، وكان ينتعل خفا واحدا ، فقد نسوا أن يعطوه ثانى الخفين ؛ وانفتحت سترته ووقعت قبعته عن رأسه

وأخذتنا جميعا هزة ووقف القائد كما كنا فى صمت ، وتقدمت إليه ثانية فقلت « ياصاحب السعادة هلا رحمت هذا المخلوق البائس »

فأجاب القائد فى ثبات ولم يخل من انفعال قائلا « مستحيل ، إنه القانون ، وفى ذلك ردع لغيره »

وقلت : الرحمة ، أرجوك من أجل الرحمة

وصاح بى القائد « أيها الضابط لا تتكلم ، وعد إلى موضعك » ثم دفعنى فى غطرسة نحو الباب

وحييت وخرجت ؛ ولما لم أكن مكلفا بموضع معين ، فقد بقيت غير بعيد من بيت القائد وظهر جريشل بعد دقيقتين يحيط به ضابط وثلاثة من الجند ؛ وكان اليهودى المسكين فى ذهول عن نفسه يكاد لا يقوى على أن يجر رجليه ؛ وذهب سيليافسكى إلى المعسكر وعاد بعد قليل وفى يده حبل ؛ وكانت تبدو على وجهه الغليظ نظرة عجيبة من رثاء وغضب ؛ ولما رأى اليهودى الحبل

استلقى على الأرض ووضع رأسه بين ذراعيه وأخذ ينتحب ؛ ووقف الجند صامتين حوله شاخصين بأبصارهم إلى الأرض ؛ وذهبت إلى جريشل وخاطبته ، وكان يجهش كالطفل ، ولكنه لم يجبنى بل ولم ينظر إلى ؛ ومضيت واليأس فى وجهى إلى خيمتى وارتميت على الفراش مغمضا عينى

ودخل شخص خيمتى فجأة فرفعت رأسى فإذا هى سارة ! فاندفعت نحوى وتعلقت بى وأمسكت بيدى ، وألحت على لاهثة « هيا ... هيا ... هيا »

فقلت : إلى أين ؟ ولم نخرج ؟ لنبق هنا ،

فقالت : أنقذه ، أنقذه ، الأب ! الأب !

فصحت بها : أى أب ؟ أبو من ؟

فأجابت : أبى ، إنهم سيشنقونه

فقلت : ماذا ؟ هل جريشل . .

فقاطعتنى قائلة : إنه أبى ، أبى ، وسأخبرك عن ذلك فيما بعد

ثم أضافت وهى تدفعنى فى يأس بيدها « هيا ... هيا »

وخرجنا نعدو من الخيمة ، واستطعنا أن نرى فى الفضاء على مقربة من شجرة فريدة جمعا من الجند ، وأشارت إليهم سارة بيدها دون أن تتكلم

فصحت بها قائلا « قفى » إلى أين نعدو؟ « إن الجند لن يطيعونى »

ولكن سارة سابقتنى تجذبنى من يدى ورحت أعدو خلفها ، ويجب ألا أدرك أن الأرض قد دارت بى ، ثم عدت أصيح بها ألا فائدة من ذهابنا ، وأن الأفضل أن نذهب إلى القائد ، فربما استطعنا أن نقنعه

ووقفت سارة فجأة ولاحت تحملق فى وجهى كأنما مسها جنون فقلت لها « إفهمينى ياسارة ، أرجو أن تدركى أنى لا أستطيع أن أفعل شيئا ، ولا أملك لأبيك شيئا ، ولكن القائد يستطيع فلنذهب إليه »

فقالت فى حيرة يخنقها البكاء « ولكنهم قد يفرغون من شنقه أثناء ذلك »

ورأيت سكرتير القائد فرجوت منه أن يسمح لنا بالزيارة لنلقى القائد ، فذهب إليهم بهذا الرجاء ، ولم يسمح لنا بالدخول على القائد وعبثا رحت أتوسل وأقسم الأيمان ، وعبثا راحت سارة تشد شعرها وتلطم خديها ، ثم إن المسكينة أمسكت رأسها بيديها وأخذت تعدو صوب الشجرة ، حيث يشنق أبوها ، وتبعتها إلى هنالك وما من أحد إلا وهو ينظر إلينا متعجبا

وكان الجند قد تحلقوا حول الشجرة ، وكانوا يضحكون. تصوروا ذلك أيها السادة ! أجل كانوا يتغامزون ويضحكون من جريشل المسكين . فصحت بهم زاجرا ، ورأى اليهودى فارتمى على ابنته وأدار ذراعيه حتى

عنقها ، وتعلقت به سارة فى كثير من الحنان ، وظن المسكين أنه قد عفى عنه ، وبينما كان يهم بشكرى أشحت بوجهى فصرخ قائلا « ياصاحب السعادة ، ألم أنل العفو ؟ » ثم دق كفا بكف حين وقفت صامتا وحين قلت بمدحين « كلا » . وتمتم المسكين فى صوت خفيف . انظر ياصاحب السعادة ، هذه البنت ، إنها ابنتى ، وإنى ما كنت أبتعد قط عن الخيمة . ما كنت لأفعل ذلك مهما يكن الثمن » ثم خر جاثيا وأغمض عينيه لحظة وراح يقول « إنى طلبت مالك ، يجب أن أعترف بذلك . ولكن لم أطلبه من أجل شيء . »

وضحك اليهودى ، ثم احسست أنى مائق كذلك بشريكته ، ولكنه عاد يهمس إلى « الآن إذا نجيتنى فإنى سآمرها ، سوف

هل تفهمنى ؟ كل شيء . . سأذهب إلى الهاوية »

وجاء نائب القائد تخاطبنى بقوله « أيها الكورنت أمرنى القائد أن أقبض عليك » وتحول نحو الجند قائلا « أما أنتم فعليكم باليهودى ، أسرعوا »

وقلت لنائب القائد « مرثم على الأقل أن يبعدوا هذه الفتاة »

وجذب الجند سارة من أبيها فى كثير من العناء ، وابتعدوا بها نحو عشرين خطوة ولكنها مالبثت أن أفلتت منهم واندفعت نحو أبيها ، واعترض لها سيليافكا ولكنها دفعته من طريقها ، وقد صعد الدم إلى وجهها الشاحب والتمعت عيناها ، ثم بسطت ذراعيها وأخذت تصيح قائلة : « لتنزل بكم اللعنة ثلاثا . . لعنة الجوع والتشريد والعار ، لتتناكم الأرض أيها الكلاب المتعطشون إلى الدم أنتم يامن لا رحمة لكم ولا دين

ثم خرت صعقة فرفعوها وبعدوا بها :

وأقبل نفر منهم فأخذوا جريشل ، وكان المسكين يئن «أوى ··· أوى ··· أوى ··· لحظة ··· لدى شيء أقوله لكم ··· شيء هام ··· دقيقة واحدة ··· أنتم تعرفوننى ··· أنا بائع أمين مسكين ··· انتظروا ··· دعونى ··· سارة ··· أين سارة ؟ أوه ··· أعلم أنها عند سعادة ضابط هذه المنطقة ··· أيها الضابط ياصاحب السعادة أبتعد عن الخيمة ··· ثم سأبتعد ··· أنقذ رب أسرة ··· سأعطيك عشرة قطع من الذهب ··· خمس عشرة قطعة ··· رحمة بى أيها القائد ··· أوى ··· أطلقونى »

ووضعوا الحبل حول عنقه ، ووضعت كفى على وجهى وانطلقت متراجعا . وقضيت أسبوعين مقبوضا على

ولما أطلق سراحى ، خرجت وحملت إلى المستشفى ، ثم سلمت دانزج ، وسنينا ، ولا أزال كلما ذكرت دانزج ذكرت سارة تلك اليهودية الساحرة

ص ا